تكنولوچيا الاتصال بين الفردية والجماعية

د . عز الدين إسماعيل(*)

فى القرآن الكريم نقرأ قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾ . فلما كانت قبيلة قريش فى الجاهلية مشهورة بالتجارة ، وكانت قوافلها التجارية تتحرك بين الشام فى شمال شبه الجزيرة العربية ، واليمن فى جنوبها ، ذهابا وجيئة على مدار العام ، وكانت هذه القوافل تتعرض أحيانا للسلب والنهب من جانب القبائل التى كانت تمر بها فى رحلتها ، فقد لجأت قريش - تأمينا لتجارتها - إلى الإيلاف المشار إليه فى الآية الكريمة . والإيلاف عقد مكتوب ، دونت فيه الشروط التى تكفل الحركة الآمنة لتلك القوافل ، وتلتزم به تلك القبائل كما تلتزم به قريش . وهكذا فرض النشاط التجارى فى ذلك الزمن هذا النوع من المواثيق والعهود المدونة ، لكى تكون حجة على من يخرج عليها .

ومنذئذ صارت الكلمة المخطوطة ، والمنسوخة بعد ذلك فى عدد يقل أو يكثر من النسخ ، هى أداة التواصل المعرفى بين الناس ، وبها سجلت الحضارة العربية - على سبيل المثال - كل إنجازها المعرفى ، الذى لا نكاد نتصور ضخامته ، وما زال

(*) أستاذ النقد الأدبى بكلية الآداب - جامعة عين شمس .

قدر كبير منه فى صورته الخطية . والشىء نفسه يمكن أن يقال عن التراث المعرفى للحضارة الغربية ، بل عن سائر الحضارات الإنسانية القديمة ؛ فقد ظلت البشرية خاضعة طوال الزمن القديم فى نشاطها المعرفى للكلمة المخطوطة .

ولاشك فى أن هذا النمط من التسجيل المعرفى ، أعنى التسجيل الخطى لها ، كان الوسيلة المتاحة لحفظ المعرفة ونشرها بعد ذلك ، لكن هذه الوسيلة لم تكن بحيث تؤدى وظيفتها على الوجه الأكمل . وعلى كلٍ فقد كانت علامة محدِّدة لمرحلة فى تاريخ البشرية ، أو - بالأحرى - فى تاريخ تطورها ، لها مشخصاتها الخاصة .

وعندما ظهرت آلة الطباعة التى اخترعها « **جوتنبرج** » كان ذلك إيذانا بتحول العالم إلى مرحلة جديدة يمكن أن نسميها بحضارة الكلمة المطبوعة . على أن هذا التحول لم يتم بطبيعة الحال فى كل أرجاء العالم فى يوم وليلة ، بل اقتضى الأمر فى هذا التحول زمنا يتفاوت فى طوله وقصره من بلد إلى بلد ، ومن شعب إلى آخر ، إلى أن أصبح للمطبعة الهيمنة على النتاج الفكرى والمعرفى فى العالم بأسره . ولم يكن ذلك التحول مجرد استخدام لأداة فى نشر المعرفة وحفظها بدلا من أخرى ؛ أعنى استخدام المطبعة بدلا من الكتابة الخطية ، بل كان لهذا التحول - بالإضافة إلى هذا - أثر كبير فى تغيير نمط التفكير وفى كيفيات استخدام اللغة .

وفى هذا الإطار يقال إن المطبعة قد أحدثت ثورة فى التواصل المعرفى بين البشر ، وفى نمو المعرفة الإنسانية واتصال حلقات هذا النمو ، وفيما تبع ذلك أو نشأ عنه من مفاهيم . وهى ثورة تختلف فى طبيعتها وأهدافها ووظيفتها عن

الثورات السياسية والاجتماعية ؛ لأن ظهور المطبعة لم يكن انقلابا سياسيا أو ثورة اجتماعية ، بل كان ثورة ثقافية معرفية فى المحل الأول .

وفى الحقبة الأخيرة من القرن العشرين بدأت بوادر ثورة جديدة فى وسائل الاتصال المعرفى ، تتمثل فى هذه المرة فى نموذج متطور عن المطبعة ، يؤدى وظيفتها القديمة والمألوفة ولكنه يتجاوزها فى إمكاناته ، هى ما يمكن أن نسميه ثورة الإلكترون أو ثورة الكمبيوتر ، وهذه الثورة لن تُحدث - شأنها شأن الثورة الطباعية - تغيرا حاسما فى أوضاع الاتصال المعرفى بين عشية وضحاها ، ولكنها - فيما يبدو - لن تستغرق فى هذه المرة زمنا طويلا حتى تعم العالم ، مكرسة لنمط ثقافى جديد يتاخم ثقافة الطباعة ويزحزحها عن مكانها إن لم يستبعدها نهائيا .

والواقع أنه منذ بداية العقد الأخير من القرن العشرين أخذت بعض الأهداف الثقافية لهذه الثورة فى التحقق ، بعد أن طُورت برامج الكمبيوتر لكى تجمع بين الكلمة والصوت والصورة ، ولكى تحدث من كل هذا تشكيلات معرفية لم يكن الكتاب المطبوع بقادر على استيعابها فضلا عن أدائها .

فى نهاية القرن العشرين ، وعلى عتبات القرن الحادى والعشرين ، يدور الجدل حول الأوضاع العامة للحياة على مستويين : فى الأول يتعلق الأمر بثقافة « ما بعد الحداثة » ، بل بمجتمع ما بعد الحداثة بعامة ؛ وفى الثانى يتعلق الأمر بالتغيرات الضخمة الواسعة النطاق فى مجال نظم الاتصالات .

ويُنظر إلى ما بعد الحداثة فى الغالب على أنها النموذج البديل من المجتمع القائم ، الذى يجرى تصويره على أنه محصور فى نطاق ضيق ، أو متصدع فى

أساسه . وعند ذاك تكون الإهابة بنظم الاتصالات الجديدة ، على أنها مفتاح الأمل فى حياة أفضل ، ومجتمع أكثر عدالة . أما مناقشة ثقافة ما بعد الحداثة فتركز إلى حد كبير على هوية فردية جديدة آخذة فى الظهور ، أو وضع جديد للذات ، تتخلى فيه عما يمكن أن يكون الهدف المحدد لدى الفرد المحدث فى مطالبته بالعقلانية والاستقلال الذاتى .

إن الخطاب المحيط بنظم الاتصال الجديدة يولى مزيدا من الاهتمام للنمو التكنولوجى المصلت فوق رؤوس البشر فى مجال تبادل المعلومات ، وللطرق التى سوف تكون بها هذه المزية فى عون الأفراد القائمين والمؤسسات القائمة .

ولعله آن الأوان للجمع بين هذين المجالين من الاهتمام ؛ أعنى ثقافة ما بعد الحداثة ونظم الاتصالات الجديدة ، وفهمهما فى إطار مشترك ، على نحو يسمح للمزايا الخاصة بكل منهما بتعزيز جانب الآخر .

إن ما تطرحه التكنولوجيا من مبتكرات لا يعنى مجرد المزيد من الكفاءة فى حركة التبادل التى تفتح مجالات جديدة للاستثمار ، وتزيد من إنتاجية العمل ، وتهيئ مجالات جديدة للمتعة والاستهلاك ، بل يعنى التغير الواسع النطاق والشامل فى حقل الثقافة ؛ فى الطريقة التى تتشكل بها الذوات .

وحين ننظر الآن فى التجربة التاريخية قد يلوح لنا أن نعقد مقارنة بين المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا فى زمننا الراهن ، ونشأة ثقافة مدنية تجارية فى قلب المجتمع الإقطاعى فى العصور الوسطى ، لما هنالك من وجوه الشبه بينها . ذلك أن الممارسات المتعلقة بتبادل السلع تطلبت أفرادا يتحركون ويتكلمون بطرق تختلف اختلافا بينا عن مبادئ الشرف الأرستقراطية ، فى تعاملهم وجها لوجه

على أساس من الثقة فى الكلمة التى يقولها المرء. ولكن لما كان التعامل قد يتم أحيانا بين تجار غرباء تفصل بينهم مسافات شاسعة، فقد تطلب الأمر - على نحو ما رأينا فى إيلاف قريش - كتابة الوثائق التى تضمن الوعود الكلامية. وهكذا تشكلت لدى التجار شيئا فشيئا، وعلى نحو غير مباشر، هوية جديدة، تَحدَّد بمقتضاها معنى ثابت للفردية على أساس من القدرات المعرفية. وعلى نحو شبيه بهذا بدأ الأساس الثقافى للعالم الحديث؛ وهو الأساس الذى اعتمد على الوسائط المطبوعة لتشجيع هذه الأشكال من الهوية المدنية ونشرها. وفى القرن العشرين قامت الوسائط الإعلامية بدعم تحول جوهرى مماثل للهوية الثقافية؛ فالتليفون والإذاعة والفيلم والتلفزيون والكمبيوتر، وتكاملها الحاصل فيما يعرف بالوسائط المتعددة Multimedia، تعيد تجسيد الكلمات والأصوات والصور من أجل خلق أشكال جديدة من الفردية.

وإذا كان من الممكن أن يقال إن مجتمع الحداثة يشجع على قيام الفرد المتميز بالعقلانية والاستقلال الذاتى والتمركز فى الذات والتوازن، فإن مجتمع ما بعد الحداثة الذى أخذ فى النشوء يحتضن أشكالا من الهوية تختلف عن تلك التى عرفها مجتمع الحداثة، بل تقف على النقيض منها. ثم إن تكنولوچيات الاتصال الإلكترونية تدعم على نحو ملحوظ تلك الإمكانات بعد الحداثية. وغالبا ما تميل مناقشات هذه التكنولوچيات إلى إغفال هذا المستوى من التحليل تحديدا، وتدرسها بوصفها وسائل دعم للأفراد.

فى مجتمع اليوم يعرف الناس وسائل كثيرة للحصول على المعلومة على نحو لم يكن متاحا من قبل. وينطبق هذا على كل الجوانب التى يشغل المرء بها نفسه

فى الحياة ، وكل الأسئلة التى تجول فى نفسه وتتطلب الإجابة عنها . ومعظم هذه الوسائل قد صار تقليديا ، كالصحف والمجلات والدوريات والنشرات الخاصة ؛ المحلية والدولية ، فضلا عن الإذاعات التى تغطى العالم بأسره ، والقنوات التليفزيونية المختلفة ؛ الإخبارية وغير الإخبارية . وهذه الوسائل المتنوعة قد ربطت بينها وسيلة أحدث هى شبكة المعلومات العالمية Internet.

وعلى الرغم من ظهور هذه الوسيلة الجديدة وانتشارها النسبى والمتفاوت فى المجتمعات المختلفة ، لا يزال الناس فى الأغلب الأعم يلوذون بوسائلهم الإعلامية المعهودة ، وفى مقدمتها الصحف . ومن ثم كان هناك من يرى أن الصحف سوف تستمر فى أداء وظيفتها فى المستقبل ، إلى جانب وسائط الإعلام الإلكترونية وشبكة المعلومات العالمية . ومع ذلك فإن ثورة الوسائط الإعلامية ، بل الثورة التكنولوچية بصفة عامة ، تفرض نفسها فرضا ، وتطور نفسها يوما بعد يوم ، على نحو يثير الأسئلة حول الغايات العملية المنوطة بها ، وإلى أى مدى هى واعدة برفاهية الإنسان ، وما إذا كانت تنطوى فى الوقت نفسه على تهديد مباشر أو غير مباشر لقيم الجماعة البشرية .

وفى هذا الصدد يقول هرمان ماين Hermann Meyn (مجلة Deutschland ، عدد فبراير/مارس ٢٠٠٠م) فى حوار معه ، مجيبا عن سؤال يتعلق بمدى خطورة شبكة المعلومات : إن لشبكة المعلومات مزية عظيمة فى بعض الأحوال ، وخطرا بالغا فى أحوال أخرى . أما المزية فتتمثل فى أنها مدخل حر إلى المعلومة ، متاح للجميع ، ومتاح كذلك فى المناطق التى لا تمارس فيها الحرية على نطاق واسع عن غير هذا الطريق . وأما الجانب السلبى لشبكة

المعلومات فيتمثل فى أنها غير خاضعة للمراقبة والتحكم ؛ فليس هناك مؤسسة تقوم بالإشراف عليها . والواقع أنه من غير الممكن أن توضع الشبكة تحت الرقابة ؛ وفى هذا يتمثل الخطر العظيم لسوء الاستعمال . إننا نسمع مرارا وتكرارا عن المضمون الإباحى والشعارات السياسية المتطرفة ، والسباب الذى يتعرض له الساسة على شبكة المعلومات . وفى بعض الأحيان نجد الإشاعات التى يراد بها الإساءة أو التشكيك قد بدأت من الشبكة ؛ من الموقع الغفل الآمن ، وأدت إلى انتشار حكايات إخبارية لا أساس لها من الصحة . وهذا هو ثمن الحرية غير المنضبطة .

والواقع أن الموقف العام من شبكة المعلومات ينقسم بين الحماسة الشديدة لها عند فريق والإقبال الحذر أو المتحفظ عليها عند فريق آخر . وهنا نجد أن بعض الدول النامية تحاول إحكام الرقابة على شبكة المعلومات العالمية ، وتبرر ذلك استنادا إلى الحجج الثقافية ، ونادرا ما تسند أسباب هذا التحكم إلى مواقف سياسية . والمألوف - بدلا من هذا - هو إخفاء هذه المواقف وراء قناع تبدو فيه على أنها حاجة ماسة لحماية ميراث الأمة الثقافى من العناصر الضارة به .

وفى هذا السياق تقدم إلينا **باولا بيمونن** Paula Vimonen[1] نموذجا من موقف بعض الحكومات الآسيوية التى تميل إلى استخدام حجة ثقافية هى حجة « القيم الآسيوية » للتحكم فى الوسائط الإعلامية بعامة ، وفى شبكة المعلومات العالمية على وجه الخصوص ؛ فهم يذهبون إلى أن الآسيويين يختلفون عن الشعوب الغربية ، من حيث إن الناس فى آسيا أكثر تعلقا بالأسرة والجماعة ، وإنهم أميَل إلى التخلى عن حقوقهم الفردية من أجل سلامة المجتمع . وترى

« **بيمونن** » أن هذه الحجج – من المنظور الأنثروبولوجى – هزيلة القيمة ؛ وذلك لأنها لا تقتصر فحسب على خلق قسمة باطلة بين الشرق والغرب ، تغض الطرف عن التعارضات القائمة بين البلدان بعضها وبعض وفى داخلها ، بل تمثل كذلك الثقافات الآسيوية تمثيلا سيئا . فالآسيويون قد تمسكوا بحقوقهم الفردية ، ووقفوا من زعمائهم الجائرين موقف المعارضة ، شأنهم فى هذا شأن الغربيين الذين تمسكوا بأسرهم وجماعاتهم . وفى كلا الجانبين كان الرجال والنساء على استعداد للنضال بل الموت فى سبيل هذه القيم الثقافية . وتنتهى « **بيمونن** » من هذا الجدال إلى أن المشكلة تتحدد فى أن التدفق الإعلامى الحر لن يسىء إلى مواطنى تلك البلاد بل زعمائهم . وليس هناك ما يسىء إليهم قدر ما تسىء إليهم المناداة بالإصلاح السياسى ، خصوصا عندما تصدر هذه المناداة من داخل أوطانهم ، ومن الناس الذين يشاركونهم ميراثهم الثقافى . وحقيقةُ أن هذا النداء ينتشر عندئذٍ عبر وسيط عالمى يكاد يكون من غير الممكن التحكم فيه – هى ما يثير الفزع حقا لدى كثير من الزعماء .

ودون الدخول فى جدال مع هذا التحليل ، الذى قدمته الكاتبة لكى تفند موقف المتحفظين من دول آسيا أو غيرهم على الشبكة ، لما يمكن أن يصيب الجماعة من ضرر عن طريقها ، يكفى أن تسجل استشعار هذه الشعوب لدور الشبكة فى تفتيت الروابط الجماعية ، وتكريس النزعة الفردية . هذا ، دون أن نغض الطرف عن أن التدفق الإعلامى الحر سيكون أكثر إزعاجا لزعماء تلك الدول . وعلى هذا يتحفظ المجتمع فى تلك الدول على المادة التى تتيحها الشبكة من منظور الهوية الثقافية الخاصة بالجماعة ، فى حين يتحفظ زعماء تلك الدول عليها من المنظور السياسى . فالأمر إذن – كما تقول « **بيمونن** » – « لا يتعلق

بمصادر المعلومات المتاحة فحسب ، بل بالإرادة السياسية كذلك . والحكومات التى تصادق على إدخال الشبكة تتاح لها فرصة فى المشاركة فى اقتصاد الإعلام العالمى والإفادة منه ، هى أفضل كثيرا مما يتاح للحكومات التى لا تصادق على هذا ، فى حين يخاطر أولئك الذين يخافون تدفق الإعلام بتخلف أبعد مدى » (ص ٦٥) .

* * *

والواقع أن وسائل الإعلام كانت دائما – إذا نظرنا إلى وظيفتها الصحيحة – تقوم على خدمة المجتمع لا على المستوى الفردى ولكن على المستوى الجماعى ، بمعنى أنها تأخذ فى الحسبان الخاصية الجمعية للمجتمع ، بما ينطوى عليه هذا من قيم وأعراف وعلاقات مشتركة تميز هذا المجتمع . ومن هنا عرفت وسائل الإعلام التقليدية على اختلافها أسلوب الرقابة ، سواء مورست هذه الرقابة من أجهزة خارجها أو تأصلت فى نظام العمل داخلها . وبغض النظر الآن عما قد يكون فى بعض الأحيان من إساءة استخدام هذا الأسلوب عندما تمارسه أجهزة رقابية خارجية ، تظل هذه الممارسة فى شكلها مستهدفة دعم البنية الكلية للجماعة والمحافظة على ترابطها وتماسكها ووقوف أفرادها على حد من الأرض المشتركة .

هذه الصورة ، أو هذه الوضعية ، تتراجع الآن شيئا فشيئا أمام الانتشار السريع بل الكاسح لشبكة المعلومات واتساع نطاق المتعاملين معها . يقول **دافيد هيوسن** [٢] :

صار من السهل على كل من امتلك خطا تليفونيا وحاسوبًا شخصيا أن يدخل إلى الشبكة . ويكاد يكون من المحال استخدام الرقابة فى حذف ما هو

مسيء أو غير مرغوب فيه ، على نحو ما كانت نظم الحكم الشمولى تصنع مع الصحف . وكذلك لا يمكن التشويش على الشبكة فيما لا يراد انتشاره عن طريقها ، كما هو الحال مع الإذاعات . ولا سبيل فى الواقع لإسكات هذه الوسيلة الإعلامية إلا بالاستيلاء على أجهزة كمبيوتر المواطنين الشخصية ، وعلى خطوط تليفوناتهم ، وهو اختيار يندر قبوله اليوم فى كثير من البلدان .

حقا إن وسائل الإعلام الجماهيرية التقليدية قد لا تكون مثالية فى عملها ، ولكنها تؤدى هذا العمل فى حدود معايير معروفة ومصطلح عليها فى أساسيات المهنة ؛ فالتقارير والتحقيقات تمر من خلال عملية تحرير من شأنها أن تدققها قدر المستطاع ؛ فإذا وقعت مع ذلك أخطاء فإنه يتم تداركها ، وإذا لحقت الإساءة بأى طرف - شخصا كان أو جماعة أو مؤسسة أو دولة .. إلخ - وشعر بتشويه سمعته فإنه يستطيع أن يقاضى الوسيلة الإعلامية التى أساءت إليه . وهذا ما لا يتحقق فى حال استخدام الشبكة ؛ فلا مراجعة ولا مؤاخذة . كذلك فإنك لا تعرف على وجه الدقة ما إذا كان المؤقع على الشبكة يقدم إليك معلومة صحيحة عن الشيشان مثلا أو تيمور الشرقية أو كوسوفو . وربما كان أسوأ من هذا أن يدعى أصحاب موقع من المواقع على الشبكة أنه يقوم ببث أخبار غير منحازة إلى طرف ما ، وهم يعلمون أنهم ينشرون الشائعات التى تفضى إلى المقاضاة لو أنها ظهرت فى وسائل الإعلام المألوفة .

ومع ذلك فإنه على الرغم من هذه الأخطار وما شابهها مما قد ينجم عن استخدام شبكة المعلومات ، لا يملك أحد أن يوقف انتشارها الكاسح حتى لقد أوشكت أن تصبح جزءا لا يتجزأ من الحياة .

فى المحاضرة التى ألقاها الدكتور « **فين سيرف** » فى مؤتمر إنترنت القاهرة ٢٠٠٠[٣] تحدث « **سيرف** » عن الآفاق قصيرة المدى لاستخدامات الشبكة العامة وتكنولوچيات بروتوكولات الاتصال عبرها، فركز - ضمن مسائل أخرى - على التداخل أو التلاحم الذى يحدث حاليا فى نقل الصوت والصورة والبيانات عبر الشبكة العامة والشبكات العاملة ببروتوكولات الاتصال وما سيستتبع ذلك من انفتاح واسع النطاق بين شبكات البث الإذاعى والتليفزيونى وشبكات الاتصال الصوتية العادية وغيرها من وسائل الاتصال الأخرى، وما سينتج عن ذلك من تطورات مدهشة.

كذلك أشار « **سيرف** » إلى تحول الشبكة العامة وشبكات المعلومات عموما نحو الاتصال اللاسلكى، سواء بموجات الراديو أو بالأشعة تحت الحمراء، وبدء موجة جديدة من الأجهزة العاملة بهذه التكنولوچيات، وضرب مثلا بكاميرا رقمية تتصل بتليفون محمول يتصل كذلك بالشبكة العامة. وعبر هذه السلسلة من الأجهزة البسيطة وما يخدمها من تطبيقات وبرامج معلومات يمكن لأى شخص أن يلتقط صورة ما، وفى دقيقة أو عدة ثوان تكون هذه الصورة قد أصبحت منشورة على موقع أو صفحة موجودة على الشبكة العامة لمن يريد استخدامها.

ومن الطرائف التى ذكرها « **سيرف** » أننا سوف نشاهد فى المستقبل شخصا يرتدى نظارة هى فى حقيقتها حاسب، « شاشته » بمثابة شكل ينشأ فى الفراغ وتتم رؤيته من خلال النظارة، دون أن يكون له وجود مادى ملموس. وهذا الحاسب يمكن أن يتصل بالتليفون المحمول أو أى وسيلة اتصال لاسلكية بالشبكة

العامة ، ومن خلاله يقوم صاحبه بتصفح الشبكة ، أو يزور المواقع التى يريدها ، وربما يكون متصلا بشبكة معلومات تتحكم فى منزله كاملا ، وتتيح له أن يغلق الستائر أو يضىء أنوار حجرة الأطفال ، وكل ذلك من خلال تحريك أصابعه فى الفراغ الموجود أمام عينيه ؛ فهو يرى شاشة الحاسب والآخرون لا يرونها .

وهكذا سوف نشاهد فى المستقبل - كما يقول « **سيرف** » - شخصا يجلس وحيدا ويحرك أصابعه فى الفراغ ؛ قد نتصوره مجنونا ، لكنه فى هذا الوقت سيكون متصلا بالشبكة ، أو متصفحا لبريده الإلكترونى .

هذا هو المتوقع فى القريب ؛ أما فى المستقبل البعيد نسبيا فقد تحدث « **سيرف** » عن مشروع لجعل الشبكة العامة عابرة للكواكب داخل النظام الشمسى ، بحيث تصبح هذه الشبكة بيئة للاتصالات داخل نطاق الأرض وخارجه ، وفيما بين الكواكب وما يدور فى الفضاء من مركبات ومحطات لإقامة رواد الفضاء ، ومستعمرات يتم إنشاؤها على القمر أو المريخ أو أى مكان آخر .

ولكن يبقى بعد كل هذا السؤال : ماذا عن أثر هذه الشبكة فى الواقع البشرى ؛ فى حياة الفرد والجماعة على السواء ؟ أو لنقل : ما التغيير الذى ينتظر أن تحدثه فى حياتهم ؟

يذهب « **داڤيد هيوسن** »[٤] إلى أن « الشبكة فى الحقيقة لا تغير الناس ، ولكن الناس هم الذين يغيرون الشبكة » .

وربما كانت الصياغة الأدق للحقيقة فى هذا الصدد هى أن الناس إذ يغيرون الشبكة يتغيرون هم أنفسهم كذلك ، بمعنى أنهم بقدر ما يغيرون الشبكة تغيرهم

الشبكة كذلك بالضرورة . وعلى سبيل المثال فإنه بقدر ما يكون امتداد الشبكة بحيث تغطى أكبر قدر من الأخبار العالمية يكون انهماك الأفراد فى الجلوس إلى الجهاز لقراءة هذه الأخبار على شاشته ، أو حتى رؤية الأحداث مصورة فى مواقعها ، والاستغناء بهذا عن قراءة الصحف وعن شرائها واقتنائها . ومن ثم يحدثنا « **هيوسن** » عن قدر يزيد على الربع قليلا من قراء الصحف فى المملكة المتحدة ، يقولون إنهم خفضوا من الصحف التى يقرءونها ، وإن كان يرى أن الرقم الصحيح لمن يدعون هذا الادعاء فى أمريكا هو أقرب إلى ١٧٪ . وعلى هذا لا يزال أثر الشبكة العامة على الكلمة المطبوعة محدودا للغاية . على أن هذا لن يستمر إلى الأبد .

والواقع أن وسائل الإعلام التقليدية لا تلقى بالا إلى هذا الخطر الذى يهددها ؛ فهى لا تزال فى وقتنا الراهن تكسب من وراء المواقع التى تشملها الشبكة أكثر مما تفقد ، نتيجة لانصراف بعض القراء عن الصحيفة ، اكتفاء بما تقدمه الشبكة من خدمة إخبارية . وهنا تحل أفعال وعادات جديدة محل أفعال وعادات قديمة ، فى نسق يتساوق كل التساوق مع عالم يسعى حثيثا إلى تجديد نفسه .

وإذا كان المستخدمون لشبكة المعلومات قد بلغوا فى الوقت الراهن مائة وخمسين مليون مستخدم ؛ فإن هذا الرقم لن يلبث أن يتضاعف فى السنوات القليلة القادمة . ومعنى هذا أن أسلوب استخدام الشبكة سيصبح خلال زمن قصير هو الأسلوب العادى والطبيعى لحصول الفرد على ما يريد من أشكال المعرفة المختلفة ، فى الوقت الذى تتراجع فيه الوسائل التقليدية شيئا فشيئا أمام هذا البديل . وإذا نحن أخذنا توقعات « **سيرف** » الآنفة الذكر ، لما ستحققه

تكنولوچيا الاتصال فى القريب العاجل وفى المستقبل البعيد نسبيا ، مأخذ الجد (وليس هناك ما يدعونا إلى التشكك فيها) ؛ فإن معنى هذا أن الآثار الناجمة بالضرورة عن هذا التحول واقعة لا محالة . ذلك بأن الانتقال من مرحلة وسائط الإعلام التقليدية إلى مرحلة شبكة المعلومات العالمية ، ليس مجرد استبدال وسيلة بأخرى ، ولكنه انتقال جوهرى من وضعية عقلية واجتماعية إلى وضعية أخرى . وفى هذا السياق شبه « **سيرف** » - المشهور بأنه أبو الشبكة العالمية - « شبه تأثير الإنترنت فى مسيرة البشرية الآن بالتأثير الذى أحدثه ظهور المحركات والكهرباء وتغلغلها فى حياة الناس حتى أصبحت المحركات تعمل على مدار اليوم والأسبوع والسنة بلا توقف ، ومن شدة انتشارها تحولت إلى شىء شائع وجزء لا يتجزأ من الحياة ، لا يشعر أحد بوجوده إلا حينما يتعطل عن العمل . وهكذا بدأت الإنترنت وتكنولوچيا المعلومات عموما تلعب دورا مشابها ، يتحول بسرعة إلى جزء من نسيج الحياة العامة لكل الناس ، يتعايشون معه ويألفونه ، ويذوب فى تفاصيل حياتهم اليومية ...» (الأهرام ، ١٤/٣/ ٢٠٠٠م ، ص ٢١) .

* * *

ولكى نفهم الآن معنى هذا التحول ، ونقف على وجه الاختلاف الحاسم بين وسائط الإعلام التقليدية وشبكة المعلومات العالمية ، ذلك الاختلاف الذى يقف وراء هذا التحول ، يتطلب الأمر معرفة الفارق بين تكنولوچيا تلك الوسائط وتكنولوچيا الشبكة .

يقول **كيفن كيلى** Kevin Kelly[٥] :

إن الشبكة العالمية w.w.w (world wide web) تقوم على أساس من

تكنولوچيا « الجذب » "Pull" Technology؛ وهذا يعنى أن مستخدم الشبكة ينبغى له أن يطلب صفحة من صفحاتها قبل أن ترسل إليه . وعلى النقيض تقوم الإذاعة على أساس تكنولوچيا « الدفع » "Push" Technology؛ وذلك لأنها ترسل المعلومات بغض النظر عما إذا كان هناك من يستقبلها .

ويمضى « **كيلى** » فيشير إلى تزايد عدد الشركات يوما بعد يوم ، تلك الشركات التى تستخدم الشبكة فى نقل المعلومة وتوزيعها بأسلوب الدفع Push-Style ؛ فهى تقدم المعلومات المعدة وفقا للطلب ، فيما يشبه لوحة المعلومات اليومية ، وما على المرء سوى أن يعين شيئًا محددا فيها يريد المزيد من المعلومات عنه ويتجه إليه مباشرة[٦] .

ومع هذا فإنه فى وسعنا أن نعين فارقا مهما بين تكنولوچيا الدفع ، التى تمثل طبيعة الإعلام الإذاعى ، ومثله فى هذا الإعلام الصحافى ، وأسلوب الدفع الشبيه الذى يستخدم فى الشبكة العالمية . ويتحدد هذا الفارق فى أن الإذاعة ، وكذلك الصحافة ، تدفع ما لديها من معلومات ومعارف إلى كل الجماهير المفترضة فى الداخل والخارج فى لحظة واحدة مرة واحدة ، ولا يملك الفرد منهم أن يستعيد شيئا منها إلا إذا هو قام بتسجيله ؛ وسوى هذا يتلقى الجميع الشىء نفسه فى اللحظة نفسها ، حتى وإن تلقاه كل منهم منفردا . وهكذا توجد الإذاعة ، وكذلك الصحافة ، بين الأفراد المنعزلين بالغا ما بلغ عددهم فى نوع من الوجود المتزامن والمتصل بموضوع واحد مشترك .

أما تكنولوچيا الدفع الشبيه المتحققة فى استخدام الشبكة العالمية فإنها – على النقيض ، وكما هو واضح – تكرس السلوك الفردى ، الذى لا يريد أن يشغل

نفسه إلا بما يريده هو ويرغب فيه ، وما فيه صالحه الخاص .

وفى إيجاز أقول : إن هذا السلوك الفردى إنما يصدر عن نزعة براجماتية واضحة ويدعمها فى الوقت نفسه .

إن الصورة الراهنة لتكنولوچيا الاتصال قد أحدثت تحولا جوهريا فى فلسفة البث والتلقى ، أو الإرسال والاستقبال ، حين حطمت - كما يقول **مارك بوستر** - نظرية القلة التى تبلّغ الكثرة . ذلك بأن الحكايات الكثيرة التى تُبث عن طريق الكمبيوتر Cybertales تدل على أن الكثرة تتكلم للمرة الأولى مع الكثرة ؛ ففى كل يوم يستطيع أولئك القادرون على تحمل نفقات الكمبيوتر و « فاتورة » التليفون أن يكونوا هم المنتجين ، والأدوات ، والمحررين ، والجمهور . أما حكاياتهم هذه فتزداد يوما بعد يوم ميلا إلى الشخصانية ، والتفاعل ، والنزعة الفردية individualistic ؛ وهى تُحكى فى برامج عامة مفتوحة لجماهير مختلفة بطرق مختلفة . وهذا الانتشار الحكائى يعتمد على تكنولوچيا تختلف اختلافًا بينًا عن الوسائل الطباعية والوسائل الإلكترونية المميزة للجيل الأول من تكنولوچيا الاتصال ؛ فهى رخيصة ومرنة وسريعة ومتاحة فى يسر . هذا فضلا عن أن النصوص الكتابية قد أضيف إليها خاصية المسموع وخاصية المرئى ، فكان هذا تعزيزا قويا لإمكانات هذا النوع الجديد من الحكايات .

ومع الجيل الثانى من الوسائط Media ظهر مصطلح « الحقيقة الافتراضية » Virtual reality ، ومصطلح « الزمن الواقعى » real time ليكونا شاهدين على قوة هذا الجيل فى تشكيل ما يسمى الثقافة التمثيلية simulation culture ؛ وهى ذلك النوع من الثقافة الذى يقوم على أساس صور تمثيلية للأشياء لا الأشياء ذاتها .

ويزداد الطابع التمثيلى للثقافة ؛ بمعنى أن الوسائط غالبا ما تغير الأشياء التى تتناولها . ومن هنا ، ومع هذا الجيل الثانى من الوسائط ، تصبح الحقيقة متعددة ، وترتبط خطورة هذا المصطلح بدلالته على تعدد الحقيقة ، أو اتخاذها أشكالا كثيرة .

والحقيقة الافتراضية « مكان » يتم تشكيله عن طريق الكمبيوتر ، ويراه المشارك من وراء المنظار الواقى ، ولكنه يستجيب للمثيرات الصادرة عن المشارك أو المشاركين ، كأن يكون هذا المكان هو البيت الذى تم « تصميمه » لكى يعايشه المرء قبل القيام ببنائه . وفى هذا يتحقق إشباع الرغبات الفردية .

إن « الحقائق الافتراضية » بمثابة تصورات خيالية عجيبة ؛ وهى باختلافها عن الحقيقة الحقيقية تثير الرغبة فى اللعب والكشف ، فيما هى تؤسس لمستوى جديد من الخيال . إنها تخطو بالخيال فى الكلمة ، والخيال فى « الفيلم » أو صورة « الڤيديو » خطوة أبعد ، عن طريق وضع الفرد فى قلب عوالم بديلة . ومن ثم يكون الأثر الناشئ عن الوسائط الجديدة ، كالشبكة العامة و « الحقيقة الافتراضية » ، هو مضاعفة أنواع الحقائق التى يواجهها المرء فى المجتمع .

وهناك من الشواهد ما يدل على أن تكنولوچيات الحقيقة الافتراضية ستتطور سريعا ، وسيكون فى استطاعة المرء المرتبط بجهاز الكمبيوتر الخاص به فى بيته أن يعايش عالما سمعيا بصريا ، كما سيشترك معه فى هذا آخرون . وهذه المماراسات إذا ما صارت فى حكم العادى والمألوف ، كما هو الشأن فى مشاهدة التليفزيون ، فعند ذاك يمكن أن يقال إن الحقيقة ستتعدد . ذلك بأن الجيل الثانى من الوسائط من شأنه أن يشكل الذوات فى قالب بعد حداثى Post-modern.

وهذا ما جعل النقاد والمراقبين بصفة عامة يرون ما هنالك من تماثل بين سياسة التعددية الثقافية وثقافة ما بعد الحداثة .

وإذا كان هناك من يرون فى كلمة « افتراضى virtual » غموضا ، ويؤثرون عليها كلمة « صناعى artificial » ، فإنه يصبح من الواضح أن الناس فى علاقتهم بالكمبيوتر قد صاروا أفرادا انفصلوا - على نحو أو آخر ، جزئيا أو كليا - عن جماعتهم لأسباب مختلفة ، فراحوا يبحثون عن انتماء إلى جماعة أخرى ، وإن تكن جماعة صناعية ، حيث تتحدد العلاقة التى تربط كلا منهم بهذه الجماعة لا بالمعايشة على أرض الواقع الطبيعى ، بل فى الموقع الصناعى المعين على الشبكة .

إن الاستهواء الذى تمارسه الشبكة بتكنولوچيتها الخاصة على الفرد لا يمكن إنكاره ، فهى إذ تدخله فى عالم من الحقائق الافتراضية القائمة على تصورات خيالية فإنها تعزله عمن حوله وعما حوله تقريبا ؛ وهنالك تنشأ الحاجة إلى البديل . وفى هذا السياق يقرر « **هاوارد راينجولد** »Howard Reingold - وهو واحد من أشد المتحمسين لاستخدام الشبكة - أنه هو وآلاف آخرون من محبى المكان الصناعى يعرفون أن ما يبحثون عنه وما يعثرون عليه بصور مفاجئة بعض الشىء ليس هو المعلومة على وجه التحديد ، ولكنه الدخول فى العلاقات القائمة مع آخرين كثيرين . وهو يسمى شبكة العلاقات التى تتحقق فى لوحة إعلام الشبكة « الجماعات الافتراضية » virtual communities.

إن نظرية الجماعة الحقيقية تزعم لأفراد هذه الجماعة ذواتا ثابتة ومستقرة ،

وهذا على وجه الدقة هو الزعم الذى تصنعه جماعات الشبكة موضع التساؤل ؛ فعن طريق الشبكة يدخل الأفراد فى علاقات من نوع جديد ، ويترابطون - كما يقول « **مارك بوستر** » - عن طريق لوحات البيانات ، مثل تلك المعروفة باسم « النبع The Well » ، دون أن يلتفتوا إلى كثير من العادات الاجتماعية التى تفرق بينهم ؛ فالمحادثات تجرى بينهم دون الالتفات إلى الجنس أو السن أو الانتماء العرقى أو الوضع الاجتماعى - تجرى فى اتجاهات ربما كانوا يتحاشونها فى حالات أخرى . والمسهمون فى هذه الجماعات العملية غالبا ما يعبرون عن أنفسهم فى قليل من التحفظ ، ومن ثم تنشط المحاورات بينهم وتنمو سريعا . على أن هذا الولع بلوحة بيانات « النبع » أو ما شابه ذلك إنما يرجع فى الواقع إلى الشعور بالجوع إلى الجماعة فى أعقاب تحلل الجماعات التقليدية فى أنحاء العالم .

وليس من باب المصادفة أن يتعاصر الجدال فى زمننا على مستوى العالم ، مع فروق نسبية بطبيعة الحال ، حول العولمة على المستوى الاقتصادى والسياسى ، وحول التكنولوچيا فى علاقتها بالإعلام ؛ فالصوت الذى يؤكد أن العولمة واقعة لا محالة ، مهما اختلف الناس فى شأنها ، لا ينفصل عن الصوت الذى يؤكد أن التكنولوچيا ماضية فى طريقها فى تطوير وسائط الاتصال والإعلام . وهنا يطرح السؤال نفسه : هل يتساوق هذا التطوير فى غاياته مع العولمة ؟

ربما اتضح لنا الجواب إذا نحن تدبرنا طبيعة النقلة الثقافية (ومالها من مدلول اجتماعى) ، تلك التى يحدثها التطور الماضى فى طريقه فى مجال تكنولوچيا الاتصال .

وإذا كانت العولمة فى جانبها الإيجابى تكرس مبدأ الأخذ والعطاء المتكافئين

بين كل الأطراف ؛ فالكل عندئذ منتج ، والكل كذلك مستهلك ، فالأمر لن يختلف مطلقا عن هذا الوضع فيما يتعلق بالمراحل الأخيرة - وليس النهائية بطبيعة الحال - التى حققتها تكنولوچيا الاتصال ؛ فليس الحديث عن النص المتمدد Hypertext على الشبكة العامة فى الكمبيوتر سوى شاهد على هذا ؛ حيث لا يكون هناك مؤلف منتج وقارئ مستهلك ، بل الكل مؤلف وقارئ ، منتجع ومستهلك فى الوقت نفسه .

وعلى هذا النحو يلتئم الشمل إذن ، الذى تدهور وتمزق على أرض الواقع فى العالم . وعلى هذا النحو تتحقق جماعية حقا ولكن من نوع جديد ، يتبادل فيها الجميع الأخذ والعطاء ، وينتج فيها الجميع بقدر ما يستهلكون ، ويتحاورون دون تسلط طرف على آخر .

إنها - فى إيجاز - يوتوبيا جديدة يحققها عالم ما بعد الحداثة بفضل التكنولوچيا النامية فى ميدان الاتصال والإعلام .

الهوامش

(١) انظر مقالها بعنوان : Networking for Democracy : The Internet and the Tree Flow of Information .

(٢) David Hewson : New Face of the News . The Sunday Times Culture, 13/ 10/ 1999,p. 58.

(٣) انظر صحيفة الأهرام فى ٢٠٠٠/٣/١٤ ، ص ٢١ .

(٤) David Hewson : Liftaff for Uk net . The Sunday Times Culture, 1999, p.50.

(٥) Kevin Kelly : Vanishing Trick . The Sunday Times Culture, 31/1/1999, p. 59.

(٦) انظر المرجع السابق نفسه .

معهد البحوث والدراسات العربية